مجلة المنهل ـ المجلد: 07، العدد: 02 (2021م) ـ ص ص 57 – 86
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

عناية الصحابةﷺ بسياق المقام، ومنهجهم في نقله وتأمينه
ـ صحيح البخاري أنموذجا ـ

The Attention Paid by the Companions -May Allah be pleased with them- to Context of Situation and their Methodology in Conveying it and Safeguarding it.

-The case of Sahih Al-Bukhârî hadiths -

سمـــير ربـــوزي (*)
المدرسة العليا للأساتذة، بوسعادة (الجزائر)
s.rabouzi@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021/06/03	2021/07/15	2021/11/13

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

شغلَ سياق المقام العلماء والباحثين قديما وحديثا، بمختلف أطيافهم وتخصصاتهم، ولاسيما في عصرنا هذا؛ حيث أضحت فكرة المقام محورا مركزيا لدى أكثر الباحثين في علوم اللغة، وبخاصة المشتغلين بعلم الدلالة، وتحليل الخطاب.

وإذ نلاحظ أنّ كمّا هائلا من الدراسات والأبحاث اشتغل أصحابُه بدراسة فكرة المقام، وحاجة فهم الخطاب النبوي إليها، وتجلّيات ذلك في مصنّفات علماء اللغة والشريعة، فإنّ جانبا مهمّا من جوانب هذا الموضوع لا يزال في حاجة إلى من يلتفت إليه، ويعطيه حقّه من العناية والدراسة؛ هو جهود الصحابةﷺ في نقل جميع عناصر السياق المقامي التي حفّت أحاديث النبيﷺ، ومنهجهم الفريد في انتخابها وتأمينها. لأجل ذلك نشأت الرغبة في كتابة هذه الورقة.

الكلمات المفتاحية: عناية؛ الصحابةﷺ؛ سياق المقام؛ منهج؛ نقل؛ أحاديث الرسولﷺ

Abstract

Context of situation has been a concern among scholars and researchers of different specialities in the past and present, especially nowadays. In fact, the idea of situation has become a central focus of most researchers in language sciences, especially those studying semantics and discourse analysis.

While we notice that researchers undertook a huge amount of studies and did research on the idea of situation, and the need of it to understand the prophetic discourse, and its different manifestations in works of Sharia scholars; an important aspect of this topic has remained in need of someone who gets down to it and deal with it appropriately in terms of study and

(*) المؤلف المراسل.

attention. This aspect is the efforts of the Companions in conveying all the elements of context of situation found in the Messenger hadiths, and their unique methodology in choosing them and safeguarding them. The desire for writing this paper emerged for this reason

Keywords: Attention; Companions; context of situation; conveying; hadiths of the Messenger; methodology.

1. مقدمة

الحمد لله الذي جعل أصحاب محمّدﷺ أفضلَ أتباع الأنبياء والمرسلين، وخيرَ أمة أخرجت للناس أجمعين؛ فقال جلَّ ذِكره مخاطبًا إيّاهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]، وأثنى عليهم، وزكّى ظواهرهم وبواطنهم في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم؛ كما أخبر بذلك تبارك وتعالى في قوله:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾[الفتح: 29].

والصلاة والسلام التامّان الأكملان على من أوصى أمّته قاطبة بأصحابه خيرا، ونهى عن تنقّصهم ومسبّتهم فقالﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ**»(البخاري، 2001، ج5، ص08، ومسلم، د.ت، ج4، ص1967)، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره، واتّبع منهاجه إلى يوم الدين، أما بعد:

فـ" إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلبَ محمدٍﷺ خيرَ قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمدﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيِّه، يقاتلون على دينه" (ابن حنبل، 1995، ج3، ص505)، ويناصرونه ويؤازرونه، ويبلّغون عنه ما شرعه الله تعالى على لسانه، وكلّ ما يتعلّق بمنصبه الشريف؛ من أوصافه الخَلقية والخلقية، وسيرته، وغزواته، وكلّ ما يعينهم على امتثال أمر ربّهم جل وعز:﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[الأحزاب: 21].

ومِن أهمّ ما كان محلّ عناية الصحابة الأبرارﷺ ما شهدته مجالسه الشريفةﷺ من أحوالٍ وملابسات، وقرائنَ وإيماءات، تندرج ضمن نطاق ما يُعرف بسياق المقام الذي لم يزل ينال الاهتمام الوافر، والعناية الشديدة من العلماء والباحثين قديما وحديثا، وفي مقدّمتهم بلا شكّ علماء الشريعة؛ الذين أدركوا منذ القديم حاجةَ تفسير النصوص الشرعية، وفهمِ مقاصدها وغاياتها، إلى معرفة مكوّنات هذا السياق المهمّ؛ سياق المقام/الحال.

ولَمّا كان ذلك كذلك فإنّ من الصعوبة بمكان أن يعثر باحثٌ على مساحةٍ في ميدان الدراسات المتعلقة بالمقام لم تطأها أقدام من سبقه من العلماء والباحثين، ولاسيما إذا تعلّق الأمر بأهمية هذا العنصر الأساسي في تشكيل دلالات الخطاب، وحاجة فهم النصوص –الشرعية منها وغير الشرعية– إليه؛ فقد اكتظّت المكتبات المختلفة، بما فيها مكتبات العلوم التاريخية، والاجتماعية، والقضائية، والسياسية، والإعلامية، وغيرها بالدراسات المهتمّة بمبحث المقام، حتى صار المتنقّل بينها ينزعج، وربما يتضايق من كثرة ما في بعضها من النقولات المكررة، وعمليات الاستنساخ التي لا مبرر لإضاعة ما سوِّدت به من مداد وأوراق.

لأجل ذلك كان ضروريا أن يتساءل المرء هنا فيقول: عن أيّ شيء يجري البحث في هذا المقال، وما هي أهمّ أهدافه وغاياته؟

<u>إشكالية البحث</u>: ينهض هذا البحث لدراسة إشكالية أسهمت في بلورتها التساؤلاتُ الآتية:

– ألا يدلّ قول ربّنا جل وعلا:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[الحجر: 09]على أنّ السنّة النبوية، وهي القسم الثاني للوحي الإلهي بعد القرآن الكريم، لابدّ وأن تكون قد تيسّر لها من أسباب الحفظ الإلهي ما أمّن وصولها إلينا، وإلى من بعدنا سالمة من النقص والتحريف؟

– هل يمكن أن تكون هنالك قرائن حالية، وملابسات معنوية، حفّت مجالس حديث النبيﷺ، أو بعضَها، ولم يتمكّن جيل الصحابة من التنبّه لها، أو تقييدها وتأمين وصولها إلينا؟

– هل يلزم من كون سياق المقام عنصرا أساسيا في عملية فهم الخطاب أن يكون لكلّ خطاب مقام يتوقّف فهمه على معرفة تفاصيله، والوقوف على كل صغيرة وكبيرة منه؟

– ألا يمكن نقل جميع عناصر السياق المقامي المسهمة في تشكيل دلالات الخطاب النبوي الشريف، وتحقيق تجاور وتعاون على مستوى الكلام المكتوب، بما يقارب أو يساوي تجاورهما وتعاونهما على مستوى الكلام المنطوق؟

– أليس مِن لازم كوْن الصحابةﷺ خير أمّة أخرجت للناس؛ كما أخبر بذلك ربّ العالمين، ودلّت عليه حكمته في اختيارهم لأفضل أنبيائه ورسلهﷺ، أن يكونوا أدّوْا مهمة نقل عناصر السياق المقامي المسهمة في تشكيل دلالات خطابات النبيﷺ كأحسن ما يمكن أن تُؤدّى عليه؟

– ما هي الأسس التي قام عليها منهج الصحابةﷺ في نقل عناصر السياق المقامي لأحاديث الرسولﷺ وتأمينها؟

أهداف البحث: يمكن تسطير أربعة أهداف أساسية يسعى بحثنا هذا إلى تحقيقها:

- الإسهام في مزيد بيان فضل الصحابةﷺ في نقلِ السنة المطهّرة، وإعانةِ المتعطّشين لقراءة أحاديث النبيﷺ على تلقّيها عنهم وكأنّهم يرونه رأي العين.

- التعريف بمنهج الصحابة الكرامﷺ في نقل العناصر السياقية المقامية، وإثبات وعيهم العميق بالمقام، ومهارتهم في فرز أجزائه، وانتخاب ما ينفع منها في عملية تذوق النصوص النبوية، وفهم معانيها.

- إثبات مدى غلوّ كثير من الباحثين المعاصرين في الاحتفاء بعنصر المقام، وجزمهم باستحالة فهم أيّ مشهد كلامي دون الرجوع إلى جميع حيثياته، وما صاحبه من أحوال وملابسات.

- إبطال شبهة القائلين بتقصير الصحابةﷺ في نقل كل العناصر السياقية المقامية، وبيان ما تحويه من طعونات مبطنة فيهمﷺ وفي السنة المطهّرة، قصدها أصحابها أم لم يقصدوها.

الدراسات السابقة للموضوع:

تقدّمت معنا إشارة إلى أنّ السياق المقامي، بهذا المصطلح أو بغيره من المصطلحات المقاربة، في السنة النبوية حظي بعناية فائقة النظير؛ وبخاصة ما يتعلق منها بلغة الجسد في الخطاب النبوي، أو طرائق التخاطب في السنة النبوية، ونحوها، ومن بين هذه الدراسات مثلا:

السياق المقامي وأهميته في تفسير صيغ المخاطبة في الخطاب النبوي، للباحثين: وان محمد وان سولونج، من جامعة بوترا الماليزية، والدكتور شمس الجميلي يوب، من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

أساليب الاتصال غير اللفظي في السنة المطهرة، للدكتور إبراهيم محمد شريف، مقال منشور على مجلة تفكر، بتاريخ: 30-06-2007 ، المجلد 8، العدد 1.

أنساق الإشارة ووظائفها الدلالية في الحديث النبوي الشريف، للباحثة منال عبد المجيد، حوليات آداب عين شمس، القاهرة، مصر، ط1، 2014.

الاستراتيجيات التخاطبية في السنة النبوية، للدكتور إدريس مقبول، مقال منشور على مجلة كلية العلوم الإسلامية، المجلد الثامن، العدد 2/15، 1435هـ-1914م.

السياق المقالي والحالي وأثرهما في توجيه الحديث النبوي الشريف، للأستاذ عبد الله واياني، مقال منشور على مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، الصادرة عن جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة – الجزائر، المجلد العاشر، العدد الأول، 2017.

غير أن الملاحظ على هذه الدراسات أنّها لم تعتمد على منهج استقرائي وصفيّ شامل؛ بل اكتفت باختيار نماذج من أحاديث النبيﷺ أحاطت بها عناصرُ سياقية غير لغوية، وكان لها إسهام في تشكيل دلالاتها، أو توجيهها، أو تضييق نطاق تأويلاتها المحتملة. كما أنّ مما يؤخذ على هذه الدراسات تقصيرها الشديد في الإشادة بجهود الصحابةﷺ في نقل عناصر السياق المقامي التي يُحتاج إليها في فهم خطابات الرسولﷺ، فضلا عن أن تكون قد أوْلتها عنايتها، وحدّدت الطرائق التي سلكها الصحابةﷺ في جمع هذه العناصر، وحفظها من الضياع والتحريف.

المنهج المعتمد في البحث: تمّ اعتماد المناهج الثلاثة الآتية في كتابة هذا المقال:

– المنهج الاستقرائي، وذلك في عملية جمع الأحاديث النبوية التي اشتملت على ذكر قرائن سياقية مقامية من صحيح الإمام البخاري تحديدا، وقد اختير هذا المصنف من بين مصنّفات السنة النبوية لاعتبارات عديدة أهمها أنه أصحّ دواوين السنة، بل أصحّ الكتب على الإطلاق بعد كتاب الله تعالى كما ذكر أكثر أهل العلم. وأنّه موسوعة، وكتاب جامع لأبواب الشريعة الإسلامية؛ ففيه العقائد، والأحكام، والأخبار، والآداب، وغيرها.

– والمنهجان الوصفي والتحليلي في عملية دراسة هذه الأحاديث، واستنباط دلالاتها، ومسائلها المتعلقة ببحثنا هذا.

وقبل الشروع في عرض مادّة هذا البحث أشير إلى مسألة ذات أهمّية كبيرة في هذا الموضوع؛ هي أنّ تخصيص الصحابةﷺ في بحثنا هذا بنقل السياق المقامي لا يتعارض معه كونُ عدد معتبر من الأحاديث النبوية تضمّنت أسانيدُها إسهاماتِ رواةٍ من التابعين في نقل بعض جزئيات هذا المقام، وبيان ذلك في الأمور الثلاثة الآتية:

– أولا مسألة الاعتبار الأغلبي؛ فأكثر ما في كتب السنة عموما، ومنها صحيح البخاري، إنما أُسند فيه نقل عناصر السياق المقامي إلى الصحابةﷺ لا إلى غيرهم من التابعين أو من بعدهم، فكانت من هذه الحيثية نسبة هذا العمل الشريف إليهم تغليبا لا حصرا.

– الأمر الثاني: أن عناية التابعين بهذه الوظيفة راجعةٌ إلى عناية الصحابة بها، وما نال التابعون وأتباعهم شرفًا في هذا المجال إلا كان الفضل فيه راجعًا إليهمﷺ، بعد الله سبحانه وتعالى، ثمّ نبيّهﷺ.

– وأنّ التابعين لم يزيدوا شيئا على ما نقله الصحابةﷺ، والصحابة أنفسهم لم يزيدوا شيئا على ما رأته أعينهم، ووعته قلوبهم؛ فأمكن القول إنّ الأمّة الإسلامية قاطبة مدينةٌ لجيل الصحابةﷺ في تلقّي دينهم،

ومنه ما نحن بسبيل دراسته من عناصر السياق المقامي لأحاديث نبيّهمﷺ؛ فاللهم جازهم عنّا وعن الإسلام خير الجزاء.

2. مفهوم سياق المقام ورؤية كثير من الباحثين المعاصرين له

ليس من حاجة تدعونا إلى تطويل المقال بذكر تعريف السياق، أو بالأحرى تعريفات السياق التي تعدّدت بتعدّد توجّهات الباحثين، وتنوّعِ مشاربهم واختصاصاتهم؛ فقد احتفى بفكرة السياق علماءُ البلاغة، والنحو، وأصول الفقه، والتفسير، والحديث، وغيرهم، وقامت لها في العصر الحديث مدارس ونظريات، جعلت منها شغلها الشاغل حتى جاوزت في كثير من الأحيان الحدّ، والشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه.

وعلى الرغم من بلوغ بعض الباحثين بأقسام السياق إلى ما يقارب العشرة، أو ربما يفوقها، فإن أكثر العلماء والباحثين قديما وحديثا متّفقون على أنّ السياق ينقسم في الإطار العام قسمين اثنين: مقالي (ومن أشهر اصطلاحاته: الداخلي، واللغوي)، ومقامي (ومن أشهر اصطلاحاته: سياق الحال، والسياق الخارجي، وغير اللغوي، والاجتماعي)، ولا يتردّد الباحث في القول بأنّ سياق المقام كان الأوفر حظّا من عناية العلماء والباحثين، وبحثهم واهتمامهم، وبخاصة في عصرنا الحديث؛ حيث أضحى "المركز الذي يدور حول علم الدلالة..، والوجه الذي تتمثَّل فيه العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال" (حسان عمر، 2006، ص337).

وكأيّ فكرة محورية في أيّ علم من العلوم؛ فإن سياق المقام/الحال قد عرف كمًّا هائلا من التعريفات والتوصيفات، فكان بعضها تفصيليا مطوّلا، كتعريف ديفيد كريستال David Crystal الذي عرّف سياق الحال بأنّه "يشمل الخلفيَّة غير اللُّغَوِيَّة لنص أو كلام ما كاملة وبكل ما فيها، ويشمل ذلك الموقف الحالي الذي يستخدم فيه النَّصّ أو الكلام، ووعي المُتَكَلِّم والسامع لما قيل قبلُ، وأَيَّة معتقدات أو افتراضات سابقة خارِجِيَّة" (سلامة، 2016، ص34)، وتعريف الدكتور حلمي خليل له بأنه "العالم الخارج عن اللُّغَة بما له من صلة بالحدث اللغويّ أو النَّصّ، ويتمثل في الظروف الاجتِماعِيَّة والنفسِيَّة والثقافيَّة للمتكلم والمشتركين في الكلام أيضا" (خليل، 1993، ص161).

وكان بعضها إجماليا مختصرا، كتعريف الدكتور كمال بشر لسياق الحال بأنه "الجوّ الخارجي الذي يحيط بالكلام من ظروف وملابسات" (بشر، 1994، ص83)، واكتفى بعضهم باعتباره: "البيئة غير اللُّغَوِيَّة لكلام ما" (سلامة، 2016، ص33).

ولم يكن القصد من حشد هذه التعريفات إثباتَ ما تقدّم ذكره من شدّة احتفاء الباحثين بفكرة المقام، ولاسيما مع ما بينها مما يشبه التطابق في الأفكار والمضامين، وإن اختلفت الألفاظ والأساليب؛ بل التنبيه على أن هذه التعريفات المنتخبة، وعشراتٍ من التعريفات الأخرى التي تدفع بها المواقع الإلكترونية، والمنتديات اللغوية وغيرها، تتفق أيضا في الإيهام بأنّ كلّ ما يحيط بالمشهد الكلامي من ظروف وأحوال داخلٌ في مسمّى سياق المقام الذي يُعدّ شريكا أساسيا في عملية تشكيل دلالات النصوص، ومن ثَمّ في عملية فهمها وتذوّقها، وهذا ما يعدّه الباحث السبب الرئيس في غلوّ كثير من الباحثين في الإشادة بفكرة المقام، وفرض هيمنته على شريكه الدائم، بل على صاحب الأولوية الكبرى، والفضل الأكبر في إنجاح عملية التواصل الإنساني، وتحقيق مهمّة فهم وإفهام مثالية ودائمة: الكلام.

وقبل أن نعرض نماذج قليلة جدا من بين أعداد هائلة أخرى من الأقوال الناشئة عن الغلوّ في هذه القضية يحسن بنا أن نقدّم تعريفا لسياق المقام في ضوء ما ارتسم في الذهن من خلال قراءات عديدة، وأسئلة كثيرة لأساتذة وباحثين متخصصين في هذا المجال، نسير في ضوئه طيلة بحثنا هذا، ونحاول كلّما سنحت لنا فرصة أن نذكر الحجج الكافية، والبراهين الشافية على ما بنينا عليه تصوّرنا له، وأنّه ليس كما يصوّره كثير من الباحثين من أنّه سلطان مملكة الفهم والقراءة، وأنّ كل نص، بل كلّ كلمة من كلمات الخطاب لا سبيل إلى فهمها، ومعرفة مراد صاحبها منها إلا بعد خوض رحلة شاقّة في التنقيب عن جميع ملابساتها الحالية، وقرائنها المعنوية:

تعريف سياق المقام: "هو مجموع القرائن المعنوية، والملابسات الحالية، والإيماءات الجسمية، التي تلفّ العملية الكلامية، وتسهم في تشكيل دلالاتها".

3. نماذج عن غلوّ بعض الباحثين المعاصرين في دراسة قضية المقام:

يمكن لنا أن نميّز بين نوعين من مظاهر هذا الغلوّ العديدة والمتشعبة؛ نوع يتعلق بالتقسيمات والتفريعات، ونوع آخر يتعلق بالتطبيقات والإجراءات العملية لنظريات أصحاب هذا المنهج السياقي المعاصر وغير المسبوق.

أما النوع الأوّل فهو ما تأثر فيه كثير من اللسانيين العرب وغيرهم بآراء المدرسة السياقية البريطانية، بزعامة جون فيرث (*John Firth*– 1890–1960م) في تقسيم السياق إلى أكثر من قسمين؛ وإذا كان فيرث ومن معه قد اكتفوا بتقسيم السياق إلى ثلاثة، أو أربعة أقسام؛ أبرزها: السياق اللغوي، وسياق الموقف، والسياق الثقافي، فإن ممن جاء بعدهم من زاد أقساما أخرى؛ مثل السياق الزماني، والسياق المكاني، والسياق الموضوعي، والسياق التاريخي، وغيرها.

ومن الحقّ أن نقول إنّه كان في الإمكان أن يَلقى هذا الصنيع قبولا وارتضاءً لدى كثير من الطلاب والباحثين لو كان له مبرّر مقنع، أو ثمار نافعة يستفيد منها الدرس اللغوي، غير أنّ ذلك لم يحصل منه شيء إلا في أذهان هذا الصنف من الباحثين، ولهذا فقد قوبل هذا المذهب الجديد في تقسيم السياق باعتراضات شديدة، وانتقادات لاذعة من كثير من الأساتذة والباحثين، يقول أحدهم: "في هذا التقسيم تعسُّف ظاهر، وتفتيت متكلّف، لا حاجة للدرس اللغوي إليه؛ لأن السياق نوعان لا ينفصلان: سياق لغوي، وسياق الحال، والأول يعتمد على الكلام المنطوق، والثاني يعتمد على الظروف والمناسبات المحيطة بالحدث الكلامي، وهذه الظروف الملابسة للحدث الكلامي تشمل بقية أنواع السياق" (حيدر، 2005، ص163).

وأما النوع الثاني من هذه المظاهر، وهو المتعلق بالجانب الإجرائي لدراسات الباحثين المبالغين في الاحتفاء بفكرة المقام، فيتمثل في تأكيدهم على ضرورة الرجوع في كل صغيرة وكبيرة، بل في دراسة أيّ جزء من أجزاء القول إلى ما لفّ عملية التلفظ به من ملابسات وقرائن أحوال! وإذا كان أوستين John *Austin* (1911–1960) قد أورد في قوله: "إنّ ما نستعمله من ألفاظ، ينبغي أن نرجع في بيان معانيها، ولغاية تأويلها، إلى سياق الكلام ومقتضى الحال الذي وقع فيه تبادل التخاطب اللساني، أو وروده فيه على وجه مخصوص" (أوستين، 1991، ص120–121)، وتحديدا في نهايته ما يمكن أن يكون تقييدا لما دعا إليه بمناسبات خاصة، وخطابات معيّنة، فإنّ أحد الباحثين المشتغلين بمجال تفسير القرآن الكريم صرّح قائلا: "لا يمكن فهم الآيات بمجرّد الأدوات اللغوية؛ بل لابد من الإحاطة بجوانبها التاريخية، والوقوف على تفاصيلها الحقيقية"! (الحارثي، 1989، ص113) وقال في موضع آخر إن سورة التوبة لا يمكن أن تُفهم بمعزل عن تفاصيل غزوة تبوك، وسورة الأنفال تكاد تكون مختصة بغزوة بدر.." (نفسه، ص114).

وقال آخر عن سورتي المطففين والممتحنة وأمثالهما إنّه "لا يمكن فهمهما ما لم نطّلع على سبب نزول كلّ سورة أو آية" (العامري، 2010، ص53). والأقوال في هذا المعنى كثيرة جدا، ولاسيما في الدراسات المفردة لدراسة قضية السياق، وكأنّ إعجاب هؤلاء الباحثين بهذا المبحث دفعهم إلى تغويله، وجعْله حكما، بل سلطانًا على عملية فهم الكلام، ومعرفة مرادات المخاطبين!

أختم الكلام عن مسألة الغلوّ في الاحتفاء بقضية المقام بذكر نموذج نوعيٍّ من نماذج هذا الغلوّ، أعدّه مدخلا مناسبا إلى موضوعنا هذا، ودافعًا من أهمّ دوافع دراسته:

يقول الدكتور إدريس مقبول: "صحيح أن الصحابةﷺ نقلوا لنا أحاديث رسول اللهﷺ، واجتهدوا في ضبطها وروايتها..، مع ما تتطلبه من الضبط والأمانة، فجازاهم الله عنا خير الجزاء، ولكن النظر في

عدد كبير من أحاديثهﷺ يجعلنا متأكّدين من أنهم لم ينقلوا سائر أحواله وأخباره والقرائن الحافة بكلامه! مما يعدّ من صميم السنة النبوية المشرّفة! وقد اعتمدواﷺ أجمعين في نقل ما رأوه على مبدأ تداولي يسمى عندنا بمبدأ الجهد الأقل..، وهذا المبدأ كتب فيه كثيرون منهم زيفZipf كتابه الشهير "السلوك الإنساني ومبدأ الجهد الأقل" Human Behavior and The Principle of Least Effort . ولعله لو وصلتنا هذه الأحوال والقرائن السياقية لوصلنا علم غزير؛ فعدم تمام السياق يجعل الكلام مفتوحا على احتمالات تأويلية تكاد تكون غير منحصرة" (مقبول، 2009، مقال على الشبكة).

ولئن كان صاحب هذا الكلام تلطّف قليلا في هذا الموضع؛ فاستعمل أسلوب: "لم ينقلوا"، "ولو وصلتنا.."، فإنّه استعمل في خاتمة بحثه، وهو في معرض ذكر النتائج التي توصّل إليها أسلوبا أشدّ قسوة، عبّر فيه مستنتجًا واثقا بقوله: "**ضياع عدد من القرائن في رواية الحديث نتيجة لإعمال مبدأ الجهد الأقل**".

وأودّ أن أقول: على الرغم من خطورة هذه المجازفة التي ألقى بها صاحبها بين أحضان كوكبة من الأساتذة والباحثين، وما انطوت عليه من مزاعم واتّهامات، إلا أنّ من يطّلع على ورقة هذا الأستاذ يلفت نظره سريعا افتقارها إلى أدنى متطلّبات البحث العلمي؛ فلا استقراء، ولا أدلّة، ولا أقوال علماء معتبرين، ولا نحو ذلك، بل أبرز ما تميّزت به هو حشد أقوال لسانيين غربيين، ومصطلحات حديثة أبعد ما تكون عن لغة أهل الحديث: سواء أتَعَلّق الأمر بالرواية أم بالدراية، ولا أريد أن أقف طويلا عند هذه العبارة، غير أني أحسب أنّ من الأهمية بمكانٍ التعليقُ، في ملحوظات سريعة، على بعض ما تضمّنته من دعاوى ومزاعم، ثمّ الانتقال بعد ذلك إلى عرض مادّة هذا المقال التي أرجو الله تعالى أن تكون كافية لإبطال هذه المزاعم وما كان على شاكلتها:

الملحوظة الأولى: قول صاحب هذا الكلام: "ولكنّ النظر في عدد كبير من أحاديثهﷺ" لا دليل عليه، بل أثبت الاستقراء الطويل، والبحث المتكرر أنّ الأحاديث التي يفتقر فهمها إلى معرفة ملابساتها الحالية، وقرائنها غير اللغوية قليلة جدا إذا ما قورنت بالأحاديث التي تحمل في طيّات سياقها المقالي ما يفصح عن معانيها، ويدفع عنها كلّ لبس وغموض، وليس هذا خاصّا بنصوص السنة النبوية، بل حتى نصوص القرآن الكريم، وعامة لغة العرب وغيرهم: أكثرها تظهر دلالاتها دون الحاجة إلى معرفة مقاماتها، وبيئاتها الاجتماعية التي ألقيت فيها.

الملحوظة الثانية: قوله: "تجعلنا متأكّدين من أنهم لم ينقلوا سائر أحواله وأخباره والقرائن الحافّة بكلامه مما يعدّ من صميم السنة النبوية المشرّفة" **التعليق**: يظهر بطلان هذا الكلام فيما يستقبلنا من هذا البحث بإذن الله تعالى.

الملحوظة الثالثة: قوله: "ولعلّه لو وصلتنا هذه الأحوال والقرائن السياقية لوصلنا علم غزير، فعدم تمام السياق يجعل الكلام مفتوحا على احتمالات تأويلية تكاد تكون غير منحصرة". **التعليق**: يعجَب المرء كيف أنّ الباحث جزم حيث كان يليق به الترجي؛ فصرّح بتأكّده من أن الصحابةﷺ لم ينقلوا سائر أحوال النبيﷺ وأخباره، والقرائن الحافّة بكلامه، وهذا زعم يفتقر إلى الأدلة الكافية، والبرهان المقنع، وليس ثمّة شيء. وترجّى حيث كان يحسُن به الجزم في عبارته المنقولة في هذه الملحوظة؛ فوصول الأحوال والقرائن السياقية، وعدم ضياع شيء منها، من شأنه -بلا شكّ- أن يحصل به العلم الغزير، وتُستبعد كل التأويلات البعيدة؛ فيا لله العجب.

نمضي الآن إلى عرض ما وقفنا عليه من ملامح منهج الصحابةﷺ في العناية بالسياق المقامي لأحاديث الرسول الكريمﷺ، من خلال أحاديث صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى، ولكن يحسن بنا قبل ذلك عرض صورة مجملة وواضحة عن هدي نبيّنا الكريمﷺ في توظيف العناصر الدلالية غير اللغوية في خطاباته المتنوعة.

4. هدي النبيﷺ في توظيف عناصر السياق المقامي

على الرغم من كثرة الدراسات المحتفية ببلاغة الخطاب النبوي عموما، وبدلالة المقام فيه على وجه الخصوص، إلا أنّ الباحث لم يقف على محاولة لبيان هدي النبيﷺ في استعمال الدلالات غير اللغوية، وأهمّ الأسس التي قام عليها؛ لذلك، ولغايات منهجية تتعلق بعرض منهج الصحابةﷺ في نقل عناصر هذه الاستعمالات، وحسن تمثيلها روايةً وكتابة، نحاول الإسهام في إضاءة هذا الجانب من جوانب البحث في البلاغة النبوية المباركة، وبيان هذه الأسس في ضوء ما توصّل إليه جهد المقلّ من التتبّع والاستقراء، وهي ثلاثة أسس: نعرضها فيما يأتي:

1. القِلّة: فلم يكن رسول اللهﷺ يستعمل من الإيماءات الإشارية، والهيئات الجسمية إلا الشيء القليل جدّا، بقدر الحاجة إليها، وهذا ما يتّفق مع سمته الشريف، وهيئته المباركة عليه الصلاة والسلام؛ فقد كان طويل الصمت، قليل الحركة، وقورا، خاشعا، متخشّعا، خلافا لمن زعم أنّ أحاديث كثيرة من أحاديثهﷺ أحاطتها قرائن حالية، وملابسات مقامية حازت قدرا معتبرا من سلطة بيان دلالاتها ومقاصدها.

ولم تكن قلّة استعمال النبيﷺ للإيماءات والحركات منحصرة في عدد المواقف والمناسبات؛ بل تعدّت ذلك إلى قلة الأعضاء والجوارح المستعملة في أداء هذه الإيماءات؛ فأكثر ما كان النبيﷺ يستعمله من جوارحه يدُه ومحيّاه، وأما إشارة العين ودلالاتها المتنوعة فلا نكاد نجد لها ذكرا في عموم السنة النبوية المطهّرة؛ لمنافاتها في أكثر الأحيان الخلق الفاضل، والسمت الكريم، وقد أجابﷺ على من سأله مرّةً عن

سبب عدم توجيههم في موقف حصل لهم معهﷺ بإشارة من عينه فقال: «**إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ**»[1].

2.<u>الدقّة والبلاغة</u>: لم يكن نبيّناﷺ يستعمل الدلالات غير اللغوية؛ من هيئات، وإشارات، وإيماءات، ونحوها كيفما اتّفق كما هو حال كثير من المتكلمين، ولاسيما في الأزمنة المتأخرة؛ بل كان يختار الحركة المناسبة للموقف المناسب، في دقّة عجيبة، وبلاغة عالية، وفي هذا يحدّثنا ابن أبي الأصبع فيقول: "ولا بد في الإشارة من اعتبار صحة الدلالة، وحسن البيان مع الاختصار؛ لأن المشير بيده إن لم يفهم المشار إليه معناه بأسهل ما يكون، فإشارته معدودة من العبث، ولهذا قال هند ابن أبي هالة في وصف رسول اللهﷺ: «..يشير بكفّه كلّها، وإذا تعجّب قلّبها، وإذا حدّث اتصل بها فضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى» (البيهقي، 2003، ص24)؛ فوصفَه ببلاغة اليد كما وصفه ببلاغة اللسان؛ يعني أنه يشير بيده في الموضع الذي تكون فيه الإشارة أولى من العبارة، وهذا حذق بمواضع المخاطبات" (ابن أبي الأصبع، د.ت، ص200).

<u>الحُسن</u>: فليس في شيء من استعمالات النبيﷺ للعناصر الدلالية غير اللغوية ما يُستنكر أو يُستكره، وإن كان في بعضها ما يثير خوف المشاهد، أو يُشعره بالحرج الشديد، أو القلق المزعج؛ لرؤيتهﷺ على حالة غير معهودة؛ مِن تغير هيئة، أو تمعّر وجه، أو دخول وخروج، أو تكرير قول مع غضب أو نحوه، وهذا الأساس متماشٍ هو الآخر مع أخلاق الرسول الكريمﷺ التي شهد له بها ربّ العالمين جلّ جلاله، وامتدحه بها قائلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[القلم: 04].

وإذ نتحدث هنا عن هيئات النبيﷺ، وإيماءاته، وأحواله المختلفة، فإننا نتحدث عن أهمّ وأكبر قسم من أقسام السياق المقامي للأحاديث النبوية المطهّرة، فلا يقال والحالة هذه إنّ هذا العنصر من البحث تضمّن خلطا ومزجا بين مبحثي المقام والإشارة؛ لأنّ الإشارة (وهي المعروفة في الدراسات اللغوية واللسانية بلغة الجسد) جزء من أجزاء سياق المقام هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأننا لاحظنا أنّ عامة ما في السنة النبوية من عناصر السياق المقامي كان من هذا القبيل؛ أي حركات، وهيئات، وإيماءات، وأحوال عرضت للنبيﷺ، أو بعض من حضر مجالسه ممن كان له تأثير في تشكيل دلالة الخطاب إما أساسًا أو عرَضا.

---

[1] موجز هذه القصة أنه "لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول اللهﷺ الناس إلا أربعة نفر، منهم ابن أبي سرح، فكان من خبره أنه اختبأ عند عثمان بن عفانﷺ، فلما دعا رسول الله الناس إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على رسول اللهﷺ، فقال: يا نبي الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟، قال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»، انظر: النسائي، أحمد، (د.ت)، السنن الكبرى، بيروت، تحقيق حسن عبد المُنعم حسن شلبي، مؤسسة الرسالة.

5. أبرز دوافع الصحابة ﷺ إلى العناية بسياق المقام لأحاديث الرسول ﷺ:

ما أكثر الدراسات والأقوال المشيدة قديما وحديثا بمجهودات الصحابةﷺفي حفظ سنّة النبيﷺ، وضبط ما أُثر عنهﷺ من أقوال، وأفعال، وأوصاف، وتقريرات، ومشاهد وأيام، ولقد اتفق هؤلاء جميعهم على أنّ مما حفّز الصحابةﷺ على أداء هذه المهمة الشريفة بمهارة وامتياز: عمومَ ما في كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّهﷺ من نصوص حاثّة على طلب العلم الشرعي، وبذل النصح للناس، والاجتهاد في رفع الجهل عنهم؛ ولذلك ليس من حاجة إلى تكرير القول، وإعادة ذكر مثل هذه النصوص الشرعية -على أهميتها، وحاجة المرء المتجددة إليها- وإنما المطلب الملحّ هنا هو الوقوف على نصوص خاصّة في الحثّ على نقل جميع متعلقات ميراث الرسولﷺ، ومن أهمّها عناصر السياق المقامي الحافّة لأحاديثه الشريفة، كانت - إضافة إلى النصوص المشار إليها آنفا- حافزًا قويّا للصحابةﷺ إلى إيلاء هذه العناصر عناية كافية منقطعة النظير.

من بين هذه النصوص قولهﷺ: «**نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا، ثُمَّ بَلَّغَهَا عَنِّي فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ**» (ابن ماجه، 2009، ج1، ص159)، وفي رواية عند ابن حبان وغيره أنّهﷺ قال: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ؛ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى من سامع**»(ابن حبان، 1993، ج1، ص268). فقولهﷺ «**فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ**» كان -بلا شك- أحد المحفّزات التي وقفت وراء حرص الصحابة الشديد، وعنايتهم البالغة بحفظ أحاديث النبيﷺ، وتوثيق مجالسه المباركة، وحفظ كلّ ما يتخلّلها من ملابسات وأحوال.

وأشدُّ من هذا الحديث في الحثّ على هذا العمل الشريف ما رواه الترمذي وغيره عن ابن مسعودﷺ قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»(الترمذي، د.ت، ج5، ص34)، وهو حديث يعدّ من جوامع كلمهﷺ لما اشتمل عليه من الفوائد الغزيرة، والمحفّزات الكثيرة على العناية بحفظ عناصر سياق المقام المرافقة لأحاديث الرسولﷺ، نسلّط الضوء على بعضها فيما يأتي:

- صدّر النبيﷺ حديثه بدعاء الله عزّ وجل أن يرزق نقلَة حديثه، الضابطين المتقنين نضارةً لم يقيّدﷺ أن تكون في الدنيا أو في الآخرة[1]، وهذه الدعوة المباركة منهﷺ كان من شأنها أن ألهبت عزائم الصحابة الكرامﷺ، وزادت من حرصهم على ضبط جميع ما يرونه ويسمعونه في مجالسه المباركةﷺ، وأن يكونوا في ذلك على أعلى درجة من الدقة والإتقان.

---

[1] وقد روي عن بعض أهل العلم أنه كان يقول: إني لأرى في وجوه أهل الحديث نضرة، انظر: البكري، محمد، (2004)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، بيروت، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ص182.

– استعملﷺ لفظة: امرأً، وهي أعمّ من جميع ما سواها من الألفاظ المقاربة، كلفظة الرجل، أو المرأة، أو الصغير، أو الكبير، أو نحوها؛ وفي ذلك من التحفيز والتهييج ما لا يخفى.

– **الملحظان الثالث والرابع:** قول النبيﷺ: «**سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا**»، فلم يقلﷺ منّي، ولم يقل أيضا سمع منا مقالة، أو حديثا، أو نحوهما؛ بل قال: شيئا، وهذا الأسلوب النبوي المبارك يعدّ، على وجازته، من أقوى صيغ العموم؛ وفي هذا يقول الطيبيرحمه الله (1667، ص688): "المراد بقوله: شيئاً عموم الأقوال والأفعال الصادرة من النبيﷺ وأصحابهﷺ، يدل عليه صيغة: منّا بلفظ الجمع، ولهذا وقع: امرأ موقع: عبدًا وهو أعمّ من لفظ العبد، على ما أوّلناه".

الملحظ الخامس: أشرنا إليه سابقا بإيجاز، وهو استعمالهﷺ كاف التشبيه في قوله: **فبلّغه كما سمع،** وفيه تأكيد على ضرورة جمع القلب عليهﷺ، وعدم الانشغال عما يجري في مجالسه من أقوال وأفعال بأيّ شيء لا تدعو الحاجة الشديدة إليه، وهذا اللفظ الصريح منهﷺ يُخشى معه أن يُعدّ طاعنًا في حرص الصحابةﷺ على امتثال أمر النبيّﷺ، وتحصيل الثواب والنفع العاجل والآجل: كلٌّ من ادّعى أنّ قرائن معنوية، وملابسات حالية ضاعت عليهمﷺ، أو لم يجدوا وقتا أو هِمّةً لتقييدها وتأمين نقلها إلى من بعدهم فضلا عن أن يكون هذا الضائع أقوالا صريحة، أو كمّا هائلا من هذه القرائن والملابسات.

الملحظ السادس والأخير هو تنبيههﷺ على مسألة في غاية الأهمية؛ هي أنّ الله تعالى فاضَل بين عباده في المواهب والأرزاق، والتي منها مواهب الفهوم والبصائر؛ حيث قالﷺ: «**فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**»؛ أي أنّه قد يخفى على الراوي الناقل للحديث بعضُ ما اشتمل عليه من الأحكام أو التوجيهات، وهذا تهييج آخر منهﷺ لأصحابهﷺ، وتزويدٌ لهم بقدر إضافيّ من الحرص على دقّة المشاهدة، وحسن ملاحظة ما يجري في مجالسهﷺ من ملابسات وأحوال.

مثل هذه النصوص، وغيرها كثير، كان من أقوى الدوافع والمحفّزات للصحابةﷺ إلى ضرب أمثلة عليا في هذا الباب؛ ولذلك لم تزل أقوال العلماء والمحدّثين شاهدة على تنافسهمﷺ رجالا ونساء على حيازة هذا الشرف العظيم، والأخذ بنصيب وافر من هذا الميراث المبارك، يحدّثنا الإمام أبو زرعة الرازي رحمه الله تعالى فيقول (: "توفِّي النبيُّﷺ ومَنْ رآه وسَمِعَ منه زيادة على مائة ألف إنسانٍ، من رجل وامرأة، كلُّهم قد روى عنه سماعًا أو رؤيةً" (ابن حجر، 1994، ص129). وفي الصحيحين عن أبي سعيدﷺ«أنّ امرأة جَاءَت إِلَى رَسُولِ اللَّهِﷺ فقالتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ؛ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللهُ، فقال: اجْتَمِعْنَ فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، فِي مَكَانِ كَذَا وَكَذَا،فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ» (البخاري، 2001، ج9، ص101، ومسلم، د.ت، ج4، ص2028).

هذا عن الحرص على الحضور والاستكثار من السماع، ولْنقلْ: عن الجانب الكمّي، وأما عن الجانب الكيفي؛ أي كيفية تحمّل الصحابةﷺ لأحاديث النبيﷺ وأدائها فيخبرنا الأعمش رحمه الله تعالى عن شيء منها فيقول: "كان هذا العلم عند أقوام كان أحدُهم لأَنْ يَخِرَّ مِنَ السماء، أحبُّ إليه من أنْ يزيدَ فيه واوًا، أو ألفًا، أو دالاً" (البغدادي، د.ت، ص177).

ولعل هذا أوان عرض أبرز الأسس التي قام عليه منهج الصحابةﷺفي نقل جميع عناصر السياق المقامي لأحاديثﷺ وحوادثه، وأودّ أن أقول إنني بذلت الطاقة في حصر هذه الأسس، فاجتمع عندي منها عشرة لا أدّعي أنها هي فقط جميع ما ارتكز عليه هذا المنهج المبارك من الأسس والأصول، ولكن أرجو أن يكون حسبي أنني لم أدّخر جهدا في البحث عنها من خلال أحاديث صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى، والله تعالى أسأل التوفيق والسداد.

6. منهج الصحابة ﷺ في نقل عناصر السياق المقامي وتأمينه

من خلال تتبّع أحاديث صحيح البخاري عليه رحمة الله؛ استقراءً لجميع مواضع ذكر عناصر سياقية مقامية سجّلها الصحابةﷺ من خلال مشاهداتهم ودراساتهم: تبيّن أن عملهم في ذلك لم يكن مجرد تسجيل آليّ، أو نقل عشوائي لا يقوم على أسس، ولا يسير ضمن منهج مدروس ومتكامل، بل قام على أسس متينة، ظهر من خلالها ما رزقهم الله تعالى من الأدب الرفيع، والفهم الثاقب، والورع الشديد، والدقة العالية. ولولا مخافة التّهمة بالغلوّ والإطراء من جهة، وباستباق الكلام، ومصادرة الأحكام من جهة أخرى: لأفَضت القول في المدح والثناء لما وقفت عليه من مظاهر الروعة والإتقان طيلة رحلتي مع كتاب الصحيح، وما احتوى عليه من نفائس الدّرر، وعرائس المعاني والفكَر. ولقد أكون معذورا في اختيار الترتيب الألفبائي لعرض هذه الأسس التي تعتبر دعائم أساسية لمنهج الصحابةﷺ في تأمين مكوّنات السياق المقامي لأحاديث النبيﷺ؛ لعدم وقوفي على أيّ معيار آخر أولى من هذا المعيار، ولأنّ الأمر في ذلك واسع والله تعالى أعلم.

أبرز الأسس التي قام عليها منهج الصحابة الكرامﷺ في نقل السياق المقامي وتأمينه

الأساس الأول: الأدب

لا يُعرف أنّ أصحاب نبيّ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا أكثر برًّا بنبيّهم، وأعظم حياءً منه، وأدبًا معه: من أصحاب نبيّنا محمّدﷺ؛ بشهادة ربّ العالمين، وشهادتهﷺ، وشهادة أهل الأخبار والسير المنصفين الصادقين، ولقد تجلّى أدب الصحابةﷺ الرفيع مع نبيّهمﷺ في جميع مناحي حياتهم، في حياتهﷺ، وبعد مماته أيضا؛ ومن ذلك ما نحن بصدد الكلام عنه من عملية نقلهم لعناصر السياق المقامي التي لفّت أحاديثه وحوادثهﷺ؛ حيث لاحظ أهل العلم بالحديث أنّ جادّة الصحابةﷺ المطّردة في سرد

وقائعهم مع النبيﷺ، وما حصل لهم معه هي انتقاء أليق الألفاظ بهذا المقام الشريف، وتجنّب أيّ عبارة توهم مخالفة أعلى مراتب الأدب معهﷺ؛ من ذلك أنهم كانوا إذا أراد أحدهم ذكر مجلس من مجالسه مع النبيﷺ قال: كنت مع النبيﷺ ولم يقل كان معي، وإذا أراد ذكر سَفرة من سفراته معه قال سافرت، أو سافرنا مع النبيّﷺ، ولم يقل سافر معنا، وهذا أدب عظيم منهمﷺ مع نبيّهمﷺ، وفيما يأتي نماذج قليلة من شواهد كثيرة جدا على هذا المسلك الحسن؛ نوردها إثباتا لجانب من جوانب عناية الصحابة الكرامﷺ بنقل عناصر السياق المقامي من جهة، وبيانا لهذا الأدب الرفيع منهم مع النبيﷺ، وحسن التعامل معه وتعظيم قدره الشريف:

– عن عبد الله بن مسعودﷺ قال: بينا أنا أمشي مع النبيﷺ في خرب المدينة، وهو يتوكأ على عسيب معه..، فسكت فقلت إنه يوحى إليه.. (البخاري، رقم: 125)

– وعن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالكﷺ أن النبيﷺ، ومعاذٌ رديفُه على الرحل، قال: يا معاذ بن جبل، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك.. (128)

– وعن المغيرة بن شعبةﷺ أنه كان مع رسول اللهﷺ في سفر.. (182)

– وعن بشير بن يسار أن سويد بن النعمانﷺ أخبره أنه خرج مع رسول اللهﷺ عام خيبر..، فأكل رسول اللهﷺ وأكلنا، ثم قام إلى المغرب، فمضمض ومضمضنا، ثم صلى ولم يتوضأ.. (209)

<u>الأساس الثاني</u>: الاقتصاد والإقلال

تقدّم معنا أنّ من خصائص الهدي النبوي الكريم في استعمال العناصر الدلالية غير اللغوية: التقليلَ من ذلك، وعدمَ الأخذ منه إلا بقدر الحاجة؛ من باب أنّ أنفع الأساليب الدعوية والتبليغية، وأوسعها تصرّفا وإقناعا هو أسلوب البيان اللفظي؛ ولذلك كان من أبرز مقوّمات منصب النبوة الشريف: الفصاحةُ وحسن البيان، قال الله تعالى﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[إبراهيم: **04**]، وقال﴿وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣﴾[النساء: **63**]، ومما يؤكّد هذا المعنى أنّ موسىعليه السلام سأل ربّه عز وجل بعدما أرسله إلى فرعون وملئه أمورا منها قوله:﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾[طه: **25-28**]، والنصوص في بيان شرف التواصل اللفظي، والبيان اللساني أكثر من أن تُحصى أو تعدّ، وإنما يهمّنا من التذكير بهذه المسألة التنبيه على أنّ العناصر المقامية، وإن تعدّدت أشكالها، وتنوعت مجالاتها، فإنّها قليلة جدا إذا ما قوبلت بعناصر السياق المقالي، الأمر الذي يفسّر قلة استعمالها في الخطاب النبوي، وإن كنّا لا ننكر ما لعناصر المقام من إسهام كبير في تشكيل دلالات الخطاب، وبيان مقاصده.

ولذلك فإن من يتتبّع عبارات الصحابةﷺ التي نقلوا من خلالها عناصر السياق المقامي فإنّه يلمس فيها عنايتهم بمبدأ الاقتصاد اللغوي؛ يدفعهم إلى ذلك أمور أهمّها ما جاءت به الشريعة الغرّاء من حثٍّ على حفظ اللسان، ومراقبة كلّ ما يدفع به من كلام، وعرضه على ميزان الشريعة القائم على قانون النفعية والخيريّة، المستمدّ من قول الله تعالى:﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[ق: 18]،وقولهﷺ: «مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيصْمُتْ»(البخاري، 2001، ج8، ص11، ومسلم، د.ت، ج1، ص68)،ونظائرهما.

إضافة إلى هذا الضابط الشرعي، فإنّ هنالك ضابطًا آخر أمْلته خصّيصة أخرى من خصائص هذا الجيل المباركﷺ؛ هي أنهم كانوا عربا فصحاء، ومتكلّمين بلغاء، يأنفون بالطبع والسجية حشو الكلام، وذكر ما لا حاجة إلى ذكره؛ فجاءت عباراتهم في وصف أحوال مجالس النبيﷺ، وما جرى فيها من ملابسات وإيماءات ونحو ذلك، وجيزة، قليلة؛ فسبقوا بذلك وبقرون متطاولة لغويي العصر الحديث إلى تقرير مبدأ الاقتصاد اللغوي، وضربوا المثل الأعلى في تمثّل الحكمة العربية الخالدة: خير الكلام ما قلّ ودلّ.

وإذا أردنا أن نستعمل لغة الأرقام والتنسيب في إثبات هذا الأمر، مع الاعتراف بالتقصير، وتجنّب كل أساليب الجزم والادّعاء، فإننا نشير إلى أن مجموع ما وقفنا عليه من إسهامات الصحابةﷺ في نقل عناصر السياق المقامي لأحاديث النبيﷺ المخرّجة في صحيح البخاري كان قريبا من أربعمائة رواية، وهي نسبة تقارب نصف العشر من أحاديث هذا الكتاب، وبعبارة أخرى: إن نقولات الصحابةﷺ لجميع الأحداث غير اللغوية التي شهدتها مجالس الرسولﷺ قليلة جدا مقارنة مع ما نقلوه من أحاديثه القولية، وهو ما يلحظه الدارس لدواوين الشعر العربي، وخطب بلغاء العرب، وحتى كلام كثير من عامّتهم، خلافا لما ادّعاه بعض الباحثين المعاصرين الذين أدّى بهم احتفاؤهم الشديد بلغة الجسد إلى تفضيلها على التواصل اللفظي، وأجروا دراسات على ذلك اتكؤوا عليها في تقرير مذهبهم هذا، منها دراسةٌ قام بها باحثون بالمركز القومي المصري للبحوث الاجتماعية قرروا من خلالها "أن تأثير الكلمة في الحوار يساوي نحو 7%، وأن نبرة الصوت لها تأثير يساوي 38%، بينما تصل نسبة تأثير الحركات والإشارات إلى 55%"!(أبو عياش، 2005، ص119).

الأساس الثالث: البلاغة وجمال الأسلوب

بعدما أنعم الله تبارك وتعالى على أصحاب النبيﷺ بنعمة الإسلام، وتذوّقوا حلاوة القرآن، وتشنّفت أسماعهم ببلاغة الرسول الكريمﷺ؛ أفصحِ من نطق، وأعلم أهل الدنيا بفنون البلاغة والبيان، ألقَوا كل ما في أيديهم من أشعار جاهلية، وخطب عنترية، ونحو ذلك مما لا يكاد يسلم من مخالفات ومناءٍ شرعية

متفاوتة، ألقوا به وراء ظهورهم، وراحوا يهذّبون ألسنتهم بآداب الإسلام، ويطوّرون عربيّتهم في ضوء تعاليمه الرشيدة، وتوجيهاته السديدة، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل بُلغاءَ أتقياء، وفصحاء نبلاء، وفيما يأتي نماذج مختارة عن براعة الصحابةﷺ في وصف بعض أحوال النبيﷺ، ونقل شيء من صفاته وإشاراته بأساليب تعكس مدى بلاغتهم من جهة، وشدّة محبّتهم لنبيّهمﷺ، وسعادتهم برؤيته وصحبته من جهة أخرى:

سئل أنس بن مالكﷺ: هل اتخذ رسول اللهﷺ خاتما؟ فقال: نعم، أخّر ليلة صلاة العشاء إلى شطر الليل، ثم أقبل علينا بوجهه بعد ما صلى، فقال: «صلى الناس ورقدوا ولم تزالوا في صلاة منذ انتظرتموها» قال: فكأني أنظر إلى وبيص خاتمه. (البخاري رقم: 661)

وعنه أيضا أنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنهما كان يصلي لهم في وجع النبيﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشف النبيﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبيﷺ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبيﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبيﷺ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفي من يومه» (680).

وفي رواية أخرى أنّ أبا بكرﷺ ذهب يتقدم، فقال نبي اللهﷺ بالحجاب فرفعه، فلما وضح وجه النبيﷺ، ما نظرنا منظرا كان أعجب إلينا من وجه النبيﷺ حين وضح لنا، فأومأ النبيﷺ بيده إلى أبي بكر أن يتقدم، وأرخى النبيﷺ الحجاب، فلم يقدر عليه حتى مات. (681)

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها أخبرته أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول اللهﷺ قام على الباب، فلم يدخله، فعرفت في وجهه الكراهية. (2105)

ومما استوقفني من أساليب الصحابةﷺ في وصف بعض أحوال النبيﷺ، وهو أسلوب عربيّ معروف، قولهم: فقال بيده، أو بأصبعه، أو بالحجاب، وفي ذلك نسبة القول إلى اليد أو الرأس أو نحوهما إشارةً إلى أنّ مثل هذه الإيماءات قد تقوم مقام اللفظ، وربما أفضل، ولولا ذاك ما استعملها سيّد الخلقﷺ، من ذلك مثلا ما أخرجه البخاري عن سهل بن سعدﷺ، قال: رأيت رسول اللهﷺ قال بإصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تلي الإبهام: «بعثت والساعة كهاتين». وعن أنسﷺقال: قال رسول اللهﷺ: «ألا أخبركم بخير دور الأنصار؟»...، ثم قال بيده فقبض أصابعه، ثم بسطهن كالرامي بيده، ثم قال: «وفي كل دور الأنصار خير». (4936)

<u>الأساس الرابع</u>: التأكيد

من عظيم نصح الصحابةﷺ لإخوانهم، ومبالغتهم في بذل الخير لهم أن لم يكتفوا في بعض الأحاديث التي نقلوها عن النبيﷺ بمجرد النقل والإخبار المجرّد عن التأكيد والتحقيق؛ بل راحوا يستعملون فيها من أساليب التأكيد ما يقطعون به الطريق أمام كلّ احتمالِ شكٍّ أو تردّد يَعترض من يتلقّى عنهم هذه الأحاديث، ومن أقوى هذه الأساليب نجد: أسلوب: سمعته أذناي، أبصرته عيناي، وعاه قلبي، ونحو ذلك. مثالُه: قول أبي شريح العدويﷺ: سمعتْ أذناي، وأبصرت عيناي، حين تكلم النبيﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره... الحديث. (6019)

وعن أبي حميد الساعديﷺ، قال: استعمل رسول اللهﷺ رجلا على صدقات بني سليم...، ثم رفع يده حتى رئي بياض إبطه، يقول: «اللهم هل بلّغت»، بصر عيني وسمع أذني. (6979)

وقد لا يكتفي الصحابي بالإخبار عن نفسه أنّه سمع بأذنيه، وأبصر بعينيه؛ بل يشير مع ذلك إليهما بأصبعه، كما في حديث نافع الذي في البخاري أنه قال: فأشار أبو سعيد بإصبعيه إلى عينيه وأذنيه، فقال: أبصرت عيناي، وسمعت أذناي رسول اللهﷺ يقول: «لا تبيعوا الذهب بالذهب، ولا تبيعوا الورق بالورق، إلا مثلا بمثل.. » الحديث. (1584)

ومن أساليب المبالغة في استعمال هذا الأسلوب ما بوّب له البخاري رحمه الله بقوله: باب: ليبلغ العلم الشاهد الغائب، عن أبي شريح أنه قال لعمرو بن سعيد: – وهو يبعث البعوث إلى مكة – ائذن لي أيها الأمير، أحدثك قولا قام به النبيﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به: حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:... الحديث. (104).

ويتأكّد المعنى أكثر حين نجد في بعض الروايات استعمال أسماء الإشارة؛ وكأن الراوي لم يقنَع بمجرد ذكر عينيه، وأذنيه، وقلبه، بل أشار إليها إشارةً قولية وفعلية، كما في رواية الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت أنه قال: فأشهد: بصُرت عيناي هاتان، ووضع إصبعيه على عينيه، وسمعت أذناي هاتان، ووضع إصبعيه في أذنيه، ووعاه قلبي هذا، وأشار إلى مناط قلبه، رسول اللهﷺ يقول: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»(الطبراني، 1994، ص168).

وإن من يتتبع مثل هذه الأساليب في دواوين السنة يلحظ أنّ مِن أبرز الدوافع التي أدّت إلى استعمالها: ما تضمّنته الأحاديث المستعملة فيها هذه الأساليبُ من مسائل تمسّ الحاجة إليها، أو يصعب الوصول إليها، وفي هذا يقول الطيبي رحمه الله: "وإنما يقال هذا في أمر يعظم مناله، ويعز الوصول إليه، فيؤكَّد السمع بالأذن، والحفظ بالقلب، والإبصار بالعين؛ ليؤذن بنيله وتحققه" (الطيبي، 1997، ص2048).

الأساس الخامس: التثبت

يعدّ التثبّت مطلبا شرعيا، وشرطا أساسيا من شروط تلقّي الأخبار وتداولها، وقد تقرّر ذلك في نصوص شرعية كثيرة؛ منها قول الله تبارك وتعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[الحجرات: **06**]، وفي قراءة فتثبتوا (ابن الجزري، د.ت، ص251)، وقول النبيﷺ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ**»(مسلم، د.ت، ج1، ص10)، وقد كان الصحابةﷺ أشدّ الناس حرصا على العمل بهذا المبدأ الشرعي في كل مجالات حياتهم، ولاسيما عندما يتعلّق الأمر بالنقل عن الله تعالى أو عن نبيّهﷺ؛ فقد كانوا يستثبتون في كل ما يأخذون، ويقطعون كل الشكوك التي تحوم حول أيّ صغيرة أو كبيرة مما ينقلون، وفيما يأتي أمثلة عن هذه الجادّة المباركة، وأدلّة على مدى عناية الصحابةﷺ بحفظ تراث النبيﷺ، ونخصّ بالذكر منه بعض عناصر السياق المقامي التي تسهم في توضيح المعاني، وتحقيق تواصل ناجح وفعّال في المشاهد الكلامية التي استُعملت فيها.

عن ابن عباسﷺ قال: أعتم رسول اللهﷺ ليلةً بالعشاء حتى رقد الناس واستيقظوا، ورقدوا واستيقظوا، فقام عمر بن الخطاب فقال: الصلاة، قال عطاء: قال ابن عباس –: فخرج نبي اللهﷺ، كأني أنظر إليه الآن، يقطر رأسه ماء، واضعا يده على رأسه، فقال: «لولا أن أشق على أمتي، لأمرتهم أن يصلوها هكذا» فاستثبتُّ عطاء: كيف وضع النبيﷺ على رأسه يده، كما أنبأه ابن عباس فبدّد لي عطاء بين أصابعه شيئا من تبديد، ثم وضع أطراف أصابعه على قرن الرأس، ثم ضمّها يمرها كذلك على الرأس، حتى مست إبهامه طرف الأذن، مما يلي الوجه على الصدغ، وناحية اللحية..، (571)

وعن ابن عمرﷺ قال: لما حاصر رسول اللهﷺ الطائف، فلم ينل منهم شيئا...، فقال: «إنا قافلون غدا إن شاء الله»، فأعجبهم، فضحك النبيﷺ، وقال سفيان مرة، فتبسم. (4325)

الأساس السادس: الدقة

قبل ذكر شيء من ملامح هذا الأساس، أودّ أن أشير إلى أنه لولا وقوفي على مواضع كثيرة جدّا في صحيح البخاري ظهرت فيها دقّة الصحابة الكرامﷺ، ومهارتهم الكبيرة في انتخاب ما يسهم في تشكيل دلالات الخطاب النبوي، واستبعاد ما سواه، وبراعتهم في الوصف الدقيق لما شاهدوه من عناصر السياق المقامي، لكنت آثرت أن ألمح إلى هذا الأساس في كلّ مرة أتحدث فيها عن أساس آخر؛ لأنّ دقة الصحابةﷺ لم تظهر –في الحقيقة– في مواضع دون أخرى، بل شملت كلّ عمليةِ نقلٍ لعنصر سياقي مقامي قاموا بها، إلا أنّ كثرة النصوص التي برزت فيها معالم هذه الدقّة العجيبة، ولاسيما في مجال وصف الإيماءات والحركات الإشارية، دفعني إلى أن أُفرد الكلام عن هذا الأساس بقسم خاصّ من هذا البحث، وأكتفي بهذا التنبيه على أنّه حتى أدب الصحابةﷺ، واقتصادهم، وبلاغتهم، وتثبتهم، ونحو ذلك

كان مراعًى فيه عامل الدقّة؛ فلم يحصل فيه شيء من اللبس، ولا الغموض، ولا الاحتمال، ولا نحو ذلك. وحتى المواضع التي يظهر من خلالها أنّها تمحّضت للدلالة على دقّة الصحابةﷺ في نقلهم لعناصر السياق المقامي للأحاديث النبوية، فإنّه يمكن لمن يقف عليها ويتأمّلها أن يلاحظ أنّها تنوّعت، وتعدّدت مظاهرها ومجالاتها، غير أنّ الباحث يرى أنّها ترجع في مجموعها إلى قسمين كبيرين؛ الوصف والإحصاء:

فمن أنواع الوصف مثلا: وصف هيئات النبيﷺ، فقد وصف الصحابةﷺ هيئته عند نزول الوحي عليه، ووصفوا غضبه، وسكوته، ورضاه، وسخطه، وكراهيته، وخوفه، ونومه، وركوبه، ونظره، ونحو ذلك[1]. ووصفوا أيضا هيئات بعض من حضر مجالسهﷺ لمناسبة قدّروها، أو ملحَظ وقفوا عليه.

ووصفوا في مواضع قليلة حالة الجوّ التي قيل فيها الكلام؛ جريا على عادتهم في اغتنام أيّ فرصة تعينهم على تقريب العلم للناس، وتيسير فهمه وإدراك معانيه وأسراره، كما في حديث عبيد الله بن عمرﷺ، قال: حدثني نافع، قال: أذّن ابن عمر في ليلة باردة بضجنان، ثم قال: صلوا في رحالكم. (632) وفي الصحيح أن عمرو بن العاصﷺ أجنب في ليلة باردة، فتيمّم وتلا:﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾[النساء: 29]فذكر للنبيﷺ فلم يعنف.(344)

وأوضح من ذلك في هذا السياق ما رواه الترمذي وغيره: عَنْ مُعَاذِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ خُبَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِﷺ، قَالَ: «خَرَجْنَا فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ وَظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ نَطْلُبُ رَسُولَ اللهِﷺ يُصَلِّي لَنَا، قَالَ: فَأَدْرَكْتُهُ، فَقَالَ: قُلْ فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، ثُمَّ قَالَ: قُلْ، فَلَمْ أَقُلْ شَيْئًا، قَالَ: قُلْ، فَقُلْتُ، مَا أَقُولُ؟ قَالَ: قُلْ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَالمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَتُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» (الترمذي، د.ت، ج5، ص567)؛ فذِكرُ عبد الله بن خبيبﷺ هذه الحالة الجوّية مما يتقوّى به هذا المعنى، وتظهر من خلاله شفقة النبي ﷺ، ونصحه لأمّته؛ حيث دلّ عبدَ اللهﷺ ومن معه على أمرٍ يحفظهم الله تعالى به في كلّ أحوالهم، ولاسيما ما يكون في مثل هذه الليلة المطيرة المظلمة من احتمال جائحة تصيبهم، أو لصوص يعتدون عليهم، أو هوامّ تؤذيهم، أو نحو ذلك مما ينشط في الظلمة وأوقات الخوف والفزع.

القسم الثاني من قسمي مظاهر دقّة الصحابةﷺ في نقل بعض عناصر السياق المقامي للأحاديث النبوية هو الإحصاء؛ فلقد كانواﷺ على مستوى عالٍ جدّا من معرفة الحساب، وتقدير الأزمنة، والأمكنة، ونحوها، ومن دقّة توظيف هذه المعرفة في نقل عناصر المقام؛ من غير إفراط ولا تفريط، ودونك أمثلة على ذلك:

---

[1] وقد حاز هذا النوع من الوصف أوفر نصيب من أوصاف الصحابةﷺ، ومن عموم المرويات التي تضمنت ذكرا لعنصر من عناصر المقام.

فمن الإحصاء العددي: ما أخبر فيه أنسﷺ عن النبيﷺ أنه «كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تُفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم، سلم عليهم ثلاثا» (94) وفي حديث معاذﷺ الذي تقدّم معنا أنهﷺ قال: «يا معاذ بن جبل، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا» (128)

وعن أبي هريرةﷺ قال: أتى رجلٌ مِن أسلمَ رسول اللهﷺ وهو في المسجد، فناداه فقال: يا رسول الله، إن الآخر قد زنى –يعني نفسه– فأعرض عنه، فتنحّى لشق وجهه الذي أعرض قبله، فقال: يا رسول الله، إن الآخر قد زنى، فأعرض عنه، فتنحى لشق وجهه الذي أعرض قبله، فقال له ذلك، فأعرض عنه، فتنحى له الرابعة، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه فقال: «هل بك جنون؟» قال: لا، فقال النبيﷺ: «اذهبوا به فارجموه» وكان قد أحصن. (5271)

وإذا أردنا أن نبتعد قليلا عن موضوع السياق المقامي، ونحن نتحدث عن حرص الصحابةﷺ الشديد على حفظ السنة النبوية، وإحصاء كلّ ما تدعو الحاجة إلى إحصائه فإننا لن نجد أدلّ على ذلك من إحصائهم عدد شعرات الشيب في رأسه الشريفﷺ؛ ففي البخاري عن أنس بن مالكﷺ قال: «لبثﷺ بمكة عشر سنين ينزل عليه، وبالمدينة عشر سنين، وقبض وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء». (3547)

ومن التقدير الزمني: ما يظهر لنا في حديث أنسﷺ قال: «كان رسول اللهﷺ يصلي العصر والشمس مرتفعة حية، فيذهب الذاهب إلى العوالي، فيأتيهم والشمس مرتفعة»(550). وعنهﷺ قال: «كنا نصلي العصر، ثم يذهب الذاهب منا إلى قباء، فيأتيهم والشمس مرتفعة». (551)

وعن أبي برزةﷺ كان النبيﷺ يصلي الصبح وأحدنا يعرف جليسه، ويقرأ فيها ما بين الستين إلى المائة. (541) وعن ابن عمرﷺ قال: «... فدخل النبيﷺ وبلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة، ثم أغلق الباب، فلبث فيه ساعة، ثم خرجوا». (468)

ومن التقدير المكاني: أنّهمﷺ كانوا كثيرا ما يقدّرون المسافات بما أتيح لهم من الوسائل والأساليب؛ ومن أشهر هذه الأساليب: التقدير بالأوقات: فيقولون: مسيرة يوم وليلة، ومسيرة شهر، ونحو ذلك، وأما المسافات القريبة فمن أساليبهم في تقديرها قولهم: رمية بحجر؛ كما في صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرﷺ «أن النبيﷺ كان ينزل في المسيل الذي في أدنى مر الظهران...، ليس بين منزل رسول اللهﷺ وبين الطريق إلا رمية بحجر». (490)

الأساس السابع: الصدق

ما أكثر ما يسوغ للمرء أن يكتم وقائع حدثت له، أو أخطاء بدرت منه، ولا يكون عليه لوم ولا تثريب؛ مادام لم تتأكّد مصلحة في ذكرها، وتعريضِ نفسه للائمة، أو انتقاد، أو نحوهما، ولاسيما إذا كفّ عن خطئه ذاك، أو تدارك نفسه، وأعلن توبة، ويتّسع الأمر أكثر في حال كون هذه الهفوات أو الزلات من اللمم اليسير المعفوّ عنه، أو غير المؤاخذ عليه أصلا.

غير أنّ المتتبع لصنيع الصحابةﷺ في حفظ ميراث النبيﷺ، والمسارعة في تبليغه للناس، يتبيّن له أنّهم لم يكونواﷺآبهين بشيء من هذه الاعتبارات، ولا متردّدين في نقل كل ما يقفون عليه من هذا الميراث المبارك كما هو؛ من غير زيادة ولا نقصان، ولو كان فيه شيء يؤلم النفس، أو يكشف شيئا مما خالفت فيه الأوْلى، أو قصُرت به عن إدراك مرتبة الكمال في التعامل مع مقام النبيﷺ، وقبل ذكر نماذج من هذا الصنف من المرويات والنقولات الأمينة ينبغي ألا يفوتنا أن ننبّه على ملحَظ شريف وقفنا عليه في هذا السياق؛ هو أنّ مثل هذه الوقائع والأحداث قليلة، بل نادرة جدّا إذا ما قوبلت بعموم ما نُقل عن هذا الجيل الفريد من الصحابةﷺ من أخبار عجيبة، وسِير عطرة كريمة، تصف مقدار حبّهم لنبيّهم، ومعرفتهم لقدره الشريفﷺ.

من أمثلة صدق الصحابةﷺ، وأمانتهم في نقل أخبار الرسولﷺ كاملة من غير تعديل ولا تبديل ما رواه الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها في خبر طويل عن حادثة بينها وبين أخواتها أمهات المؤمنين رضي الله عنهنّ سببُها أنّ الناس كانوا يتحرّون بهداياهم يومها رضي الله عنها؛ فاجتمعت أمهات المؤمنين عند أمّ سلمة رضي الله عنهنّ، وقلن لها: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمُري رسول اللهﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث ما كان، أو حيث ما دار، قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبيﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليّ ذكرت له ذاك فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: «يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة؛ فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها». (3775) ولقد كان في وسع أمّ سلمة رضي الله عنها أن تكتم هذا الكلام، أو أن تخصّ به أخواتها أمّ المؤمنين عدا عائشة رضي الله عنها، ولكنّها آثرت أن تعلن فضل عائشة عليها وعلى أخواتها، وأن تنقل هذا العلم إلى غيرها، فللّه درها، ورضي الله عنها وعن الصحابة أجمعين.

من ذلك أيضا ما أخرجه البخاري رحمه الله تعالى عن جابر بن عبد اللهﷺ، قال: أتيت النبيﷺ في دَين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «من ذا؟» فقلت: أنا، فقال: «أنا أنا!» كأنه كرهها. (6250) فجابرﷺ لم يبخل على إخوانه المسلمين أن ينقل إليهم هذه الفائدة الكريمة الطيبة؛ وهي كراهة أن يستأذن

الطارق أو الطالب للدخول أو نحوه بما لا يُعرف به؛ بل نقلهاﷺ وأكّد على ذلك بذكر الكراهية، وهذا صدق منهﷺ، ونصح للمسلمين، وإسهام في تعليمهم وحسن توجيههم.

من ذلك أيضا ما أخبر به كعب بن مالكﷺ عن نفسه بخصوص ما حصل له بعد تخلّفه عن غزوة تبوك؛ حيث لم يمنعه أنّ الله تعالى تاب عليه وعلى من معه، وأنزل فيهم قرآنا يُتلى، ورضي عنه رسول اللهﷺ، وتبسّم له بعدما هجره وأمر بهجره، لم يمنعه ذلك من أن يحكي ما حصل له بتفصيل طويل، وأسلوب رائع، نكتفي منه بقولهﷺ: «فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول اللهﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني» (4418).

وإنّي لأستأذن القارئ الكريم في إيراد قطعة ماتعة من خبر كعبﷺ؛ لما فيها من أدلة على ما تقدّم ذكره من حرص الصحابةﷺ على نقل ميراث النبيﷺ بكل أجزائه وتفاصيله، ولاسيما ما تعلّق بهيئاتهﷺ، وما يعرض له من أحوال شعوريّة وانفعالية؛ كالغضب، والرضا، والفرح، والكراهية..، وأدلة أخرى على ما نحن بسبيل الحديث عنه من صدق الصحابةﷺ عموما، وفي نقل ميراث النبيﷺ وجميع متعلّقاته على وجه الخصوص:

قال كعبﷺ: «لم أتخلف عن رسول اللهﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك..، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول اللهﷺفي حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفازا وعدوا كثيرا..، فجئته فلما سلمت عليه تبسّم تبسُّم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه....، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول اللهﷺجالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني..، فلما سلمت على رسول اللهﷺ قال: رسول اللهﷺوهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»...، وكان رسول اللهﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه..، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق..، وأنزل الله على رسولهﷺ:﴿**لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ**﴾[التوبة: 117]إلى قوله:﴿**وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[التوبة: 119](4418).

الأساس الثامن: الفقه

من فقه الصحابةﷺ، ورجاحة عقولهم: أنّهم كانوا يحرصون على تسجيل أيّ ملاحظة أو ملابسة حالية من شأنها أن تدرّ على المسلمين فقها في دينهم، وعلمًا يقرّبهم إلى ربّهم تبارك وتعالى:

من ذلك مثلا ممّا يتعلق بالاعتقاد، وتعظيم جناب التوحيد، أنّ عائشة رضي الله عنها لم تكتف في نقل قصةٍ لرسول اللهﷺ مع زوجتيه أمّ سلمة، وأمّ حبيبة رضي الله تعالى عنهما، بمجرد ذكر الخبر دون نقلٍ لما تخلّله من أحوال وملابسات تنير المشهد الكلامي، وتكشف مقاصده ودلالاته؛ بل وصفت لنا كيف أنّهﷺ رفع رأسه في تعبير واضح عن صرامتهﷺ في اجتثاث كل جذور شجرة الشرك، وقطع جميع وسائله وذرائعه: في البخاري (1341) أنّ أم سلمة، وأم حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها، فرفع رأسهﷺ فقال: «أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا، ثم صوروا فيه تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله».

ومن الفوائد الفقهية المتعلقة ببعض العبادات العملية: ما يستفيده القارئ من الحديث الصحيح الذي خرجه الإمام البخاري (برقم: 634) عن محمد بن يوسف، قال: حدثنا سفيان، عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه، «أنه رأى بلالاﷺ يؤذّن؛ فجعلت أتتبع فاه ها هنا وههنا بالأذان».

ومنها أيضا حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: صلى رسول اللهﷺ في بيته وهو شاكٍ، فصلى جالسا وصلى وراءه قومٌ قياما، فأشار إليهم أن اجلسوا، فلما انصرف قال: «إنما جعل الإمام ليؤتم به». (688)، وموضع الشاهد من الحديث قولها رضي الله عنها: (وهو شاكٍ).

وعن ابن عباسﷺ قال: قال النبيﷺ: «أُمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة، وأشار بيده على أنفه، واليدين والركبتين، وأطراف القدمين ولا نكفت الثياب والشعر» (812)، فمن حرص النبيﷺ على تعليم أمّته، أن أمرّ يده على أنفه؛ تأكيدا على ضرورة وضعه على الأرض عند السجود، ومن فقه ابن عباسﷺ أن نقل إلينا هذه الحركة الجسمية الخفيفة، المتضمّنة توجيها لطيفا، وعلما شريفا.

ومنها أيضا حديث الرجل الذي رجل مرّ عليه رسول اللهﷺ، فسأل عنه، فلما أُجيب قال: «ليس من البر الصيام في السفر » (1946)، كلّ من قرأ كلام النبيﷺ مجرّدا عن سياقه المقامي الذي نقله إلينا الصحابةﷺ نقلا أمينا دقيقا انقدح في ذهنه مباشرة أنّ الصوم في السفر مكروه، أو محظور على الإطلاق، وليس هذا بصحيح؛ لأنه خاصّ بالحالة التي كان عليها هذا الرجل، وهذا ما يظهر جليًّا عند قراءة الحديث مع استحضار ملابساته الحالية، وقرائنه المعنوية: في البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: كان رسول اللهﷺ في سفر، فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه، فقال: «ما هذا؟»، فقالوا: صائم، فقال: «ليس من البر الصوم في السفر». ويؤيد هذا التوجيه، ويوضّحه رواية كعب بن عاصم الأشعريﷺ قال: قفلنا مرة مع رسول اللهﷺ ونحن في حرٍّ شديد، فإذا رجل من القوم قد دخل تحت ظل شجرة وهو يسطح كهيئة الوجع، فلما رآهم رسول اللهﷺ قال: «ما لصاحبكم؟ أي وجع به؟» قالوا: ليس به

وجع، ولكنه صائم، فاشتد عليه الحر، فقال النبيﷺحينئذ: «ليس البر أن تصوموا في السفر، عليكم برخصة الله التي رخص لكم».

ومن فقه الصحابةﷺ في باب الآداب ومكارم الأخلاق ما أخرجه الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن أبي موسى الأشعريﷺ قال: جاء رجل إلى النبيﷺ فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإنّ أحدنا يقاتل غضبا، ويقاتل حمية، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما، فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عز وجل» (123)؛ فهذه فائدة في أدب الحديث، وكيفية سؤال العالم، وإجابة السائل، ومخاطبة المستمع على وجه العموم.

ومنه أيضا صنيعهم في نقل خبر المرأة السوداء التي كانت تقمّ مسجد رسول اللهﷺ، فلما ماتت دفنها الصحابةﷺ ولم يشاؤوا أن يوقظوا النبيﷺ من نومه للصلاة عليها، فسأل عنهاﷺ بعد ذلك فذكروا له خبر وفاتها فقال: «أفلا كنتم آذنتموني به، ثم سأل عن قبرها وصلى عليها» (458). لقد حمل وصف رواة هذا الحديث لهذه المرأة بأنها سوداء في طيّاته فوائد جمّة، وتنبيهات مهمّة؛ منها تواضع النبيﷺ، وسؤاله عن الخادم، ومنها النهي عن احتقار المسلم لأيّ اعتبار كان، وعدم التفريق بين الناس في تفقّد أحوالهم، وعيادة مريضهم، وشهود جنائزهم، والصلاة عليهم، ونحو ذلك، كلّ ذلك اختصره الرواة في وصف هذه المرأة بأنها امرأة سوداء، فلله درّهم وﷺ.

الأساس التاسع: النبل والعفة

في هذا الأساس تظهر لنا بعض خصال الصحابة الرفيعة، وأخلاقهم العاليةﷺ؛ حيث يتحاشون تعيين المذكور في الحديث لا لمجرد عدم وجود مصلحة في تعيينه، كما مرّ معنا في حديث المرأة السوداء، وكما هو الحال في أحاديث كثيرة أخرى؛ بل تجنّبا لكشف أمره بين الناس، أو جعْله علَما على ما نُسب إليه في الحديث لكثرة دراسة المسلمين له، وتناقلهم لخبره.

من ذلك مثلا عامّة ما في دواوين السنة من أخبارِ مَن أصاب شيئا من الخطايا؛ وجاء يشكو حاله، أو يسأل عن حكم شرعي، أو نحو ذلك، فأيّ مصلحة في ذكر خبره مع تعيينه، والتشهير بخطيئته؟! مثالُه ما أخرجه البخاري عن أبي هريرةﷺ قال: أتى رسولَ اللهﷺ رجل من الناس وهو في المسجد، فناداه: يا رسول الله، إني زنيت، يريد نفسه، فأعرض عنه النبيﷺ فتنحّى لشق وجهه الذي أعرض قبله، فقال: يا رسول الله، إني زنيت، فأعرض عنه، فجاء لشق وجه النبيﷺ الذي أعرض عنه، فلما شهد على نفسه أربع شهادات، دعاه النبيﷺ فقال: «أبك جنون؟» قال: لا يا رسول الله، فقال: «أحصنت؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «اذهبوا به فارجموه» (6815).

ولعله يدخل في ذلك أيضا ما رواه عن ابن عباسﷺ «أن النبيﷺ مرّ، وهو يطوف بالكعبة، بإنسان يقود إنسانا بخزامة في أنفه، فقطعها النبيﷺ بيده، ثم أمره أن يقوده بيده». (6703)

وليس بالضرورة أن يكون المانع من تعيين الرجل أو المرأة سياق الحديث وقوعٌ في خطيئة، أو مخالفة لخلق حسن أو سلوك قويم؛ فقد يكون لمجرّد أن في الأمر خصوصية لا يحسُن إشاعتها، أو أمرًا تعارف الناس على إخفائه؛ ولعل من ذلك ما رواه الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدريﷺ أن رسول اللهﷺ أرسل إلى رجل من الأنصار فجاء ورأسه يقطر، فقال النبيﷺ: «لعلنا أعجلناك»، فقال: نعم. (180) وموانع تعيين بعض المشاركين في تشكيل السياقات المقامية لأحاديث الرسولﷺ كثيرة يعسُر حصرها، وحسبنا منها ما يتحقق به المقصود، والله أعلم.

الأساس العاشر: الورع

لهذا الأساس تعلّقٌ شديد ببعض الأسس التسعة السابقة، وأخصّ منها أسس: التأكيد، والتثبت، والدقة، والصدق، والعفة، غير أنّي آثرت إفراده بكلام مستقلّ لظهور خُلُق الورع بشكل واضح وكبير في الطائفة المختارة لهذا الأساس من شواهدَ مجموعة من صحيح البخاري لغرض البحث عن منهج الصحابةﷺ في نقل عناصر السياق المقامي المحفوفةِ بها أحاديثُ النبيﷺ.

وأقصد بخلق الورع في هذا الصنف من الشواهد ما ظهر على صنيع رواة أحاديث النبيﷺ من صحابة وتابعين رضي الله عنهم أجمعين من ورع شديد، وخوف من أن يكون أحدهم سببا في الزيادة أو النقص من أحاديث النبيﷺ، أو شيء من العناصر المقامية التي حفّتها؛ من ذلك مثلا صنيع ابن سيرين رحمه الله تعالى وهو يروي عن أبي هريرةﷺ حديثا قال فيه: صلى بنا رسول اللهﷺ إحدى صلاتي العَشي – قال ابن سيرين: سماها أبو هريرة ولكن نسيت أنا – قال: فصلى بنا ركعتين، ثم سلم، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد، فاتكأ عليها كأنه غضبان، ووضع يده اليمنى على اليسرى، وشبك بين أصابعه، ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى.... الحديث (482)

قلت: قد كان يكفي ابن سيرين رحمه الله أن يقول: صلاة، أو إحدى صلاتي العشيّ، أو نحو ذلك، لاسيما وأنّ علَما مثلَه يعلم يقينا أنّ مِن جهابذة المحدثين، وحفّاظ الرواة الكثيرين مَن عنده خبر اليقين في هذه الواقعة، ولكن مع ذلك صرّح، رحمه الله، بأنّ أبا هريرةﷺ سمّى هذه الصلاة، وأنّه هو من نسي، ولم يقل نسيت وكفى؛ بل أكّد ذلك بذكر ضمير المتكلم: أنا.

نظير ذلك أيضا صنيع شعبة رحمه الله؛ حيث قال: أخبرني عمرو، عن خيثمة، عن عدي بن حاتم، قال: ذكر النبيﷺ النار، فتعوذ منها وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار فتعوذ منها وأشاح بوجهه، – قال شعبة: أما مرتين فلا أشك – ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة..»، الحديث (6023).

ومن ذلك أيضا شاهد تقدّم معنا، نختم به عرضنا هذا؛ قول الأعمش رحمه الله: "كان هذا العلم عند أقوام كان أحدُهم لأَنْ يَخِرَّ مِنَ السماء أحبُّ إليه من أنْ يزيدَ فيه واوًا، أو ألفًا، أو دالاً"(البغدادي، د.ت، ص177).

6. خاتمة:

نختم هذا البحث بذكر أهمّ ما توصّل إليه من نتائج، وما يقدّمه من توصيات:

✓ يعدّ المقام عنصرا أساسيا، وعاملا مهمّا في عملية فهم الخطاب، وإدراك مرادات المخاطِبين.

✓ تسهم في تشكيل سياق المقام مكوّناتٌ عديدة؛ منها ما يتعلق بالمخاطِب، ومنها ما يتعلق بمن حضر مجلس الخطاب، ومنها أحوال أخرى كثيرة تتعلق بالجوّ العام للخطاب، وما يسبح في فلكه من قرائن وملابسات دالّة.

✓ أبرز ما رافق أحاديث النبيﷺ من عناصر مقامية تمثّلَ في تغيّر هيئاتهﷺ، وما كان يستعمله أحيانا من إيماءات إشارية، وحركات جسمية، وكذلك ما حصل في بعض مجالسه من مواقف وأحداث لأناس حضروها؛ من سائل، أو مسؤول، أو أيّ أحدٍ تصرّف تصرّفا كان له تأثير في إنشاء خطاب نبوي شريف، أو تغيُّرٍ في مساره الدلالي أو نحوه.

✓ من خلال تأمّل أحاديث صحيح الإمام البخاري، وكذا كثير من دواوين السنّة والشعر العربي الأخرى، تبيّنَ أن توظيف العناصر الدلالية غير اللغوية كان قليلا جدا في مقابل توظيف العناصر اللغوية، مع الاعتراف بأهمية استعمال الدلالات غير اللغوية، وأنّها تنوب أحيانا عن دلالة الألفاظ، وربما تفضل عنها في أحيان عديدة أخرى.

✓ تكفّل الصحابة الكرامﷺ بنقل جميع عناصر السياق المقامي التي رافقت مجالس حديث النبيﷺ، وكان لهم في ذلك جهد طيّب، ومنهج سديدٌ أثبت أنّ لهم عناية فائقة بهذا المجال، ودراية واسعة بطرائق حفظ السنة النبوية، وكلّ ما يُحتاج إليه من ملابسات مقامية، وقرائن معنوية، تعين على فهمها، وتدفع عنها كلّ لبس وإشكال.

✓ من خلال أحاديث صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى توصّل الباحث إلى أنّ منهج الصحابةﷺ في نقل عناصر السياق المقامي وتأمينها قام على أسس متينة، أحصى منها الباحث عشرةً؛ هي: الأدب، والاقتصاد، والبلاغة، والتأكيد، والتثبت، والدقة، والصدق، والفقه، والنبل والعفة، والورع.

✓ من خلال جهود الصحابةﷺ في نقل السنة النبوية، تبيّن أنّ في إمكان المرء، كاتبا كان أم متكلما، أن يُعفي مخاطَبه من مهمة التنقيب عن ملابسات الخطاب، ومرافقاته المقامية المختلفة؛ بأن يجسّد له هذه الملابسات والأحوال، وينقلها إليه في دائرة المقال، وهذا المسلك اللغوي الفريد تجلّت أعلى

مستوياته في الخطاب القرآني المعجز؛ حيث ورد في مواضع كثيرة منه نقولات لعناصر سياقية مقامية، تجعل القارئ يشعر وكأنه يرى أحداثها رأي العين؛ نحو قول الله تعالى:﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [الأحزاب: 19]، وقوله سبحانه:﴿ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾[الذاريات: 29]، وقوله سبحانه:﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ٩٤﴾[الصافات: 94]، وقوله جل وعلا: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤﴾[القلم: 23-24]، ونظائر ذلك كثير في القرآن الكريم، وفي كلام العرب وغيرهم عامّة.

✓ لم يستند كلّ من اتّهم الصحابةﷺ أو ألمح إلى أنّهم لم ينقلوا سائر أحواله وأخباره والقرائن الحافة بكلامه، إلى دليل مقنع، ولا إثبات علميّ مُنبنٍ على تقصٍّ واستقراء؛ بل لم تعدُ أقوالهم ومزاعمهم أن تكون رجمًا بالغيب، أو اغترارا بنظريات مبهرجة، وآراء غربية جوفاء، لا تمتّ إلى قواعد البحث العلمي بِصلة.

✓ يعتقد الباحث أنّ ادّعاء تقصير الصحابةﷺ في تأمين عناصر السياق المقامي التي عرفتها بعض مجالس حديث النبيﷺ لا يقف عند حدّ اتّهامهم ظلما بغير بيّنة ولا برهان؛ بل يتعدّى ذلك ليشكّك في كون سنّة النبيﷺ قد وصلت إلينا كاملة، ويصادم بشكل غير مباشر قول ربّنا جلّ وعلا:﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[المائدة: 03]، وقوله تعالى:﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[الحجر: 09].

<u>توصيات البحث</u>: في ضوء نتائج هذا المقال يقدّم الباحث جملة من التوصيات، أهمّها:

✓ الالتفات إلى جهود الصحابةﷺ في نقل السنة النبوية؛ والاستفادة من طرائقهم ومسالكهم في ذلك.

✓ توجيه عناية الباحثين إلى دراسة مناهج الصحابةﷺ في تأمين عناصر السياق المقامي بمختلف أشكالها، من خلال تتبع دواوين أخرى للسنة النبوية المطهّرة.

✓ تعليم الناشئة، وطلاب العلم بمختلف مستوياتهم وتخصصاتهم: ولاسيما اللغوية والشرعية، أنّ للقول أولوية وأفضلية على كل ما سواه من أصناف الدلالة المختلفة، وأنّ كثيرا مما نطالعه من مبالغات في استعمال العناصر الدلالية غير اللغوية إنما مردّه إلى فقر لغوي، أو خلل في فهم أسرار البلاغة، وشجاعة العربية.

✓ الحدّ من هيمنة الفكر السياقي المقامي لدى كثير من الباحثين، وتقرير مذهب الاعتدال في ذلك؛ فليس كلّ نصّ كلامي مرتهن بسياقٍ مقاميّ، وليس كل مكوّن مقامي يُحتاج إليه في قراءة النصوص، وفهم مرادات المتكلمين.

✓ التنبيه على مسألة نقل العناصر المقامية، وتجسيدها ضمن دائرة سياق المقال، باحترافية وإتقان؛ وأنّ ذلك من شأنه أن يحقق توازنا وتكاملا بين سياقيْ الكلام: المقالي والمقامي.

وصلى الله على نبيّنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليما كثيرا

7ـ قائمة المصادر والمراجع:

1. **المؤلفات:**
2. ابن أبي الإصبع، عبد العظيم، (د.ت)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، الجمهورية العربية المتحدة، تقديم وتحقيق حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
3. ابن الجوزي، محمد، (د.ت)، النشر في القراءات العشر، مصر، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.
4. ابن حبان، محمد، (1993)، صحيح ابن حبان، بيروت، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط2.
5. ابن حجر العسقلاني، أحمد، (1994)، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط1.
6. ابن حنبل، أحمد، (1995)، المسند، القاهرة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث.
7. ابن ماجه القزويني، محمد، (2009)، سنن ابن ماجه، بيروت، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، محمَّد كامل قره بللي، عَبد اللّطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، ط1.
8. أبو عياش، نضال، (2005)، الاتصال الإنساني من النظرية إلى التطبيق، فلسطين، كلية فلسطين التقنية/العروب،ط1.
9. أوستين، جون، (1991)، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق.
10. البخاري، محمد، (2001)، الجامع المسند الصحيح، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1.
11. بشر، كمال، (1994)، علم اللُّغَة الاجتماعِيّ مدخل، القاهرة، دار الثقافة العَرَبِيَّة.
12. البغدادي، أحمد، (د.ت)، الكفاية في علم الرواية، المدينة المنورة، تحقيق: أبي عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية.
13. البكري، محمد، (2004)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، بيروت، اعتنى بها: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط4.
14. البيهقي، أحمد، (2003)، شعب الإيمان، الرياض، اعتنى به الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط1، 1423 هـ-2003م.

15. الترمذي، محمد، (د.ت)، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي.
16. تمام حسان عمر، تمام، (2006)، اللغة العربية معناها ومبناها، بيروت، عالم الكتب، ط5.
17. الحارثي، عبد الوهاب، (1989)، دلالة السياق، منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم، عمان، الأردن، ط1.
18. حيدر، فريد، (2005)، علم الدلالة، دراسة نظرية وتطبيقية، القاهرة، مكتبة الآداب، ط1.
19. خليل، حلمي، (1993)، الكلمة دراسة لغَوِيَّة معجميَّة، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.
20. الطبراني، سليمان، (1994)، المعجم الكبير، الرياض، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار الصميعي، ط1.
21. الطيبي، الحسين، (1997)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، مكة المكرمة-الرياض، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار الباز، (مكة المكرمة - الرياض)، ط1.
22. مسلم،(د.ت)، المسند الصحيح، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
23. النسائي، أحمد، (2001)، السنن الكبرى، بيروت، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، ط1.

24. الرسائل الجامعية:

25. سلامة، إيهاب، (2016)، قرينة السياق ودورها في التقعيد النحوي والتوجيه الإعرابي في كتاب سيبويه، مصر، رسالة دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس.

26. المقالات العلمية:

27. العامري، خليل، (2010)، السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، العراق، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد التاسع، العدد الثاني.

28. المواقع الإلكترونية:

29. مقبول، إدريس، (2009)، السنة النبوية الشريفة ومستويات التمام السياقي، مقاربة لسانية تداولية، مداخلة ضمن أشغال النَّدوة الدُّوليَّة الرَّابعة للحديث الشَّريف: "السُّنَّة النَّبويَّة بين ضوابط الفهم السَّديد ومتطلَّبات التَّجديد"، والمنعقدة في كليَّة الدِّراسات الإسلاميَّة والعربيَّة بدبي - دولة الإمارات العربيَّة المتَّحدة، بتاريخ: 26-04-1430هـ/21-04-2009م، تاريخ الاطلاع: 15-03-2018، رابط المقال على الأنترنيت:
30. https://www.alssunnah.org/ar/65-seminar-fihm-alssunnah/3713-2009-05-11-20-24-42